الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

---

١ — اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

(ا) القضاء على الفتن والثورات .

(ب) إحياء الخلافة العباسية .

٢ — سياسة بيبرس الخارجية :

(ا) موقف بيبرس إزاء الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام .

(د) علاقة بيبرس بالمغول .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية .

(و) سياسة بيبرس إزاء ملوك أوربا .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة وبيبرس .

---

obeikandl.com

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ — اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وتقدّم اليه فارس الدين أقطاى المستعرب وبايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء؛ وذلك قرب الصالحية قبل وصولهم الى القاهرة[1]. فلما تمت البيعة قال له أقطاى : لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك الى قلعة الجبل. فركب ومعه الأمير قلاوون وبلبان الرشيدى وجماعة آخرون فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبى نائب السلطنة — وكان خارجا لمقابلة قطز — فأخبره هؤلاء بما حدث؛ فبايع بيبرس وقدّم له فروض الطاعة ثم تقدّمهم الى القلعة ووقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا. وكانت القاهرة قد زينت لقدوم قطز فرحا به وسرورا لما فعله بالتتار واستبشارا بقدومه اليها، واستمرّت تلك الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق الناس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفا من ظلم المماليك البحرية ومعاودتهم ما كانوا عليه من الجور والفساد[2].

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ماتلقب به أحد فأفلح، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر[3].

---

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ (٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٦٥ — ٤٦٧ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٦ — ٤٣٧ (٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٦ أ.

أخذ بيبرس بعد تربعه على دست الملك يطمح الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين من توسيع نطاق الامبراطورية المصرية، والى اعلان الحرب على الصليبيين الذين كانوا لايزالون يغيرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وسنرى أنه بذل جهده فى استئصال شأفتهم من هذه البلاد وان كانت لم تتحقق كل أغراضه ، اذ لم يمهله الزمان حتى يرى المدن الساحلية خالية من النواقيس والصلبان .

وكان همه موجها بنوع خاص الى ردّ غارات المغول الذين كانوا قد ثبتوا قدمهم فى فارس وأسسوا لهم أسرة ملكية تسمى أسرة «الايلخانات» أو الأسرة الهولاكية ، وكذلك محاربة الصليبيين الذين اتفقوا مع التتار ضد الولايات الباقية فى أيدى الخلافة العباسية.(١) ولذا نراه بعد أن دخل القلعة واجتمع حوله الأمراء وكبار رجال الدولة يأخذ فى منحهم الألقاب وتوليتهم المناصب العالية و إغداق نعمه عليهم بالاقطاعات الواسعة ليشتدّ بهم أزره ويقوى بهم ساعده . ولم يكتف بولاء الأمراء له بل أراد أن يكسب عطف الرعية ومحبة الشعب وميل النفوس النافرة اليه فأخذ فى ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها ؛ فعين فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا للعسكر واستناب عنه فى السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار وفوض إليه جميع أمور الدولة وصار صاحب الحل والعقد بها وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر وعزل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا.(٢) .

أراد بيبرس أن يستجلب رضى الرعية عنه ويبث فى نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه وتناسى ماقدّمت يداه من السيئات ؛ فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 264.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

والضرائب[١] . فاطمأنت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشربوا محبته فى قلوبهم ؛ ثم جدّ فى إحضار المماليك البحرية الذين كانوا متفرّقين فى البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاى . وبذلك تلافى بطشهم بالأهالى بجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشىء الكثير .

كذلك أرسل بيبرس الى سائر النوّاب والأمراء فى مصر والشام يعلمهم باعتلائه عرش البلاد المصرية ؛ فأجابوه بالطاعة والاذعان فى سائر النواحى سوى بعض الأمراء فى بعض الجهات الشامية فانه عظم عليهم تولية الظاهر وامتنعوا عن الاعتراف به سلطانا واستقلوا ببلادهم[٢] مما حدا بالظاهر إلى محاربتهم حتى ينضووا تحت لوائه قبل أن يتفرّغ لشئون بلاده الخارجية .

(١) الثورات الداخلية :

لم يصف الجو تماما لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين علم الدين سنجر الحلبى الذى استنابه الملك المظفر قطز بدمشق[٣] . فقد نادى بنفسه سلطانا عليها فى ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حماه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص ليدخلا فى طاعته ، فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشا مع علاء الدين أيدكين البندقدارى لمحاربته ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق فى صفر سنة ٦٥٩ هـ ، والتقى

(١) كان قطز قد أثقل كاهل أهالى مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث الترك ، كما فرض دينارا على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٫٠٠٠ دينار فى السنة . مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 14.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨

بجيش الحلبى بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبى وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جنّ الليل خرج لا يلوى على شىء قاصدا بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها[1]، وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحبا حماه وحمص إلى بلديهما. ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة فى حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابرها[2].

أما عن ولاية حلب فان قطز كان قد ولى عليها عند عودته الى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غير أن السعيد سار فى حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم وعند ما بلغه مسير التتار إلى البيرة[3] فى أواخر سنة ٦٥٨ هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند، ولم يقبل نصيحة أحد فى منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقاة التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب من البيرة، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذى ابتزه من الأهالى ظلما، ويقدره المؤرخون بخمسين ألفا من الدنانير[4].

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقر حسام الدين بها. غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماه، وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظن فى أول الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به، غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص — وكان التتار فى هذه الأثناء قد انقضوا على حماه — فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص فى المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار، فالتقوا

(١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ (٣) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية. ياقوت: معجم البلدان. (٤) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ — ٢٠٩؛ المفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٧٠

بهم بظاهر حمص وقاتلوهم وتمت النصرة للمسلمين وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون (١)؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق حتى انتهت ثورة سنجر. أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها واستقر مكانه فخر الدين الحمصى نائبا من قبل الملك الظاهر.

بعد أن استقر علاء الدين البندقدارى بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة من المماليك الذين كان يتوهم منافستهم له فى الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرفى وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما (٢). وكان الأخير واليا على نابلس وغزة وبلاد الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين لمحاربة سنجر بدمشق. ولما قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين وفروا إلى دمشق ليلا، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الانضمام إليه ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور فى ذلك فأغلظ له فى الرد؛ فمضى مغضبا نحو حلب وبها فخر الدين الحمصى الذى أرسله علاء الدين لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه فى المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه بهذه الأطراف تحت طاعته؛ فاغتر فخر الدين بقوله وسار نحو الظاهر؛ ولم تمض مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على ما بها من الأموال وجمع حوله العرب والتركمان واستعد للقتال. وسار جيش مصر قاصدا الشام لمحاربته بقيادة جمال الدين المحمودى وعلم الظاهر بمسير فخر الدين إليه فوبخه على تركه حلب وردّه مع الجيش وعفا عن سنجر الحلبى وسيره هو أيضا لمحاربة البرلى؛ فسار الجميع إلى حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة ولما لم يجد بيده غيرها أعلن ولاءه

(١) ذكر مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٧٥؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠.

للملك الظاهر واستأذنه فى القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته، ثم غادرها ثانيا إلى البيرة ؛ ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه سنة ٦٦١ هـ .(١)

وفى هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين . وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم جندا له ووجههم للاغارة على الشوبك ومما يليها من الولايات التى دخلت فى حوزة الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد ؛ فهم الظاهر بالذهاب إلى الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ؛ فأمنهم واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم(٢) . غير أن بيبرس لم يأمن بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته — فغادر مصر فى ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة فى ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها فى العودة ثم استدعى المغيث فقدم إليه بعد تردد وتقابلا فى بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده له وتأمينه كما أنه تناسى استعطافه والعفو عنه فقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيدا ؛ فظل معتقلا بقلعة الجبل حتى قتل(٣) .

وقد يكون للظاهر فى قتله بعض العذر إن صح ما يرويه المؤرخون عن هذه الحادثة ؛ فقد ذكر أبو الفدا(٤) أن المغيث كان قد راود امرأة الظاهر عن نفسها حين فر بيبرس منه إلى غزة وقدم إلى مصر وترك زوجته بالكرك فى عهد سلطنة قطز كما تقدم . وهذه الحادثة إن صحت تحفظ القلوب وتنسى معها العهود والمواثيق .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤ (٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٨٤ (٣) المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ و ٢٣١
(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٦

لذا نرى الظاهر يضمر السوء للمغيث ويتظاهر له بلين القول وزخرف الحديث حتى تمكن منه . وهناك أمر آخر يجيز للظاهر فعله مع المغيث . فقد روى كل من أبي الفدا والمفضل والمقريزي[1] أن الظاهر بعد أن قبض على المغيث أحضر الملوك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان والشهود ورسل الفرنجة وأظهر لهم فتاوى الفقهاء بقتله وأحضر السفراء الذين كانوا بينه وبين هولاكو وقرئت الكتب المذكورة عليهم[2]؛ وانفض الجمع وكتب السلطان إلى من بالكرك يحذرهم ويتوعدهم وسير إليهم بدر الدين بيسرى وعز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال . وهذه الرواية تفيد أن المغيث كان متواطئا مع التتار متصلا بهم اتصالا سريا بالمكاتبات والرسل مما قوى الشبهة في اتهامه لدى الظاهر ، كما أن هناك سببا آخر دعا بيبرس الى الغدر به وهو أن أحد رسل التتار كان قد قدم إلى المغيث ليقف على أخبار الملك الظاهر؛ فلما علم بذلك بيبرس بعث بمن يحضره إليه فأنكره المغيث أولا ثم اضطر إلى إرساله[3] . ومن هذا نفهم أيضا أن استعطاف المغيث للظاهر وطلبه الأمان ما كان إلا خوفا من قوته وسطوته بينما هو يدبر المكايد له بمناصرة أعدائه والانضمام إليهم ولو من طرف خفي .

وبعد أن اعتقل المغيث أرسل الملك الظاهر واليا على الكرك وأمن أهلها ورتب أمورها وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها؛ ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص — وكان

(١) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٧؛ النهج السديد ص ١٠٩؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٨٢

(٢) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ص ٤١٣ ب؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١، أن هذه الكتب تتضمن شكر هولاكو للملك المغيث ووعده إياه باقطاعه البلاد من بصرى إلى غزة، وبارسال عشرين ألف فارس لفتح مصر .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١

ملكلها وراثيا لآبائه من أيام الملك العادل نور الدين ، ولم تزل متوارثة فيهم الى أن مات الأشرف سنة ٦٦١ هـ — وبموته آلت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بنى أيوب (١) .

(ب) إحياء الخلافة العباسية :

تولى الظاهر عرش مصر فى وقت كانت البلاد فيه مفككة العرى مفصومة الوحدة والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحى . فمصر تتنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها واستبداد الأمراء من المماليك بالأمر فيها وتطلع الأيوبيين بالشام اليها وتهديد التتار لها ؛ والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها فى أيدى الأيوبيين ، والصليبيون يحتلون سواحلها ، والتتار قد أغاروا عليها واحتلوا جزءا عظيما منها بعد أن تم لهم الاستيلاء على جزء كبير من البلاد الشرقية من أقاصى بلاد ما وراء النهر الى حوض دجلة والفرات .

ولما أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد فى ٣ يناير سنة ١٢٥٨ م ، ودحر جيوش الخليفة ولم يبق فى طريقه الى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة نفسه بعد أن وعده هولاكو بالأمان ؛ ثم لم يلبث أن قتل (٢) بعد أيام قلائل هو وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن (٣) . وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الاسلامية من الخلافة وليس من أمراء المسلمين من يجرؤ على إعادة الخلافة الى سابق عهدها .

حقا لقد شغل كل أمير إسلامى بالعمل على بقاء سلطته فى دويلته التى أمر عليها أو مقاطعته التى ملكها وليس له وراء ذلك غاية أو مأرب إلا أن يكون رغبته

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٥

(٢) تختلف الروايات فى كيفية قتل الخليفة المستعصم وفى هذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقيل إنه خنق وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات وقيل غرق فى الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٣) Browne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463.

فى اتساع منطقته أو ازدياد نفوذه فى بعض النواحى الأخرى . ولم يفكر أحد فى إعادة الخلافة سيرتها الأولى ؛ فظل منصبها شاغرا حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

أخذ بيبرس فى السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية الى مكانتها بعد أن قضى عليها هولاكو فى بغداد . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك الى أن يقوى عرشه فى مصر ضد أحقاد نظرائه من المماليك ويجعل حكمه شرعيا فى البلاد . ويعزو السير وليم ميور[1] سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية بمصر الى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأى بعيد عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده فى المصادر العربية والافرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامراة التى دبرت سنة ١١٩٤م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر[2] لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعل السير وليم ميور اعتمد أن طائفة الاسماعيلية التى كانت تقطن سورية فى ذلك الوقت والتى كانت على عداء مع بيبرس ربما تفكر فى إرجاع الخلافة الفاطمية ؛ ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر ، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا فى إرجاع الخلافة للفاطميين ، ولم نسمع أنهم اشتركوا فى المؤامرات التى دبرها شيعة مصر لاعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أول من فكر فى إحياء الخلافة العباسية بل سبقه الى التفكير فى ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذى ما كاد يعلم من

---

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) اشترك فى هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الاسماعيلية وملك صقلية وعمورى ملك بيت المقدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

الأمير عيسى بن مهنا أن أميرا عباسيا قدم الى دمشق حتى أرسل يستدعيه اليه؛ غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية الى عيسى بن مهنا[1] . وعند ما قدم الملك المظفر قطز الى دمشق على أثر انتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسى . فقال له "اذا رجعنا الى مصر أنفذه الينا لنعيده إن شاء الله"[2]. ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى الى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين؛ غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة[3] .

مما تقدم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين فى ذلك الوقت كانوا يميلون الى إحياء الخلافة العباسية؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع فى تنفيذ مافكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكى يعزز زعامته للاسلام . وقد تحققت آماله فى إحياء الخلافة عندما ورد اليه كتاب من الأمير علاء الدين طيبرس والأمير علاء الدين البندقدارى يتضمن أن رجلا وصل الى دمشق يدّعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة؛ فكتب اليهما السلطان يوصيهما به خيرا ويكلفهما بأن يعينا من يقوم فى خدمته ويرسلا معه حجابا الى مصر[4] وأعدّ العدّة لاستقباله . وعند ما علم بمجيئه طار الى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين ابن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر؛ واليهود يحملون

---

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبى على الحسن القبى بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجه ثم ذهب الى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ (٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣

(٣) ذكر السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق وزاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار فى جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار وانتصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب الى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب الى مصر لما علم أن أميرا عباسيا آخر قدم اليها ورجع الى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلى . وسنرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذى استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .

(٤) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨

التوراة والنصارى يحملون الإنجيل وساروا جميعا الى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا الى قلعة الجبل[1] . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيأ لهذا المركز ؛ إذ أبى حين وصوله الى القلعة أن يتقدّم الإمام أحمد فى الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا فى مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسى معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلسا فى قاعة الأعمدة دعا اليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام[2] ، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهده العربان الذين قدموا الى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدى هذا الإمام العباسى واستدعى العُربان الذين قدموا معه من بغداد ؛ فأقروا جميعا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضا بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه "على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها"[3] وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة فى مصر باسميهما ، وكذا أمر

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحيانا على كبار العلماء . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٦ ص ٩

(٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ — ١٩ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ — ٤٥٠

بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له فى خطبة الجمعة . ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى ردّ الخلافة لبنى العباس (١) .

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصا عند شروعه فى مبايعة الأمير العباسى الذى قدم إليه ، فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بنى العباس بخلاف الملك المظفر قطز الذى ما كاد يعلم أن أميرا عباسيا وصل إلى دمشق حتى سارع إليه وبايعه بالخلافة .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون فى نسبة هذا الخليفة إلى العباسيين . ويتضح لنا ذلك من عبارة أبى الفدا (٢) فى هذا الصدد ونصها : "وفى هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر" ثم يقول فى موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار "وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود ... ... وتوجها إلى دمشق" . كذلك نجد مفضل بن أبى الفضائل (٣) يسمى هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود .

ولعل الشك الذى يبدو فى عبارة هذين المؤرخين من حيث صحة نسب هذا الامام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، ولكن سواد اللون لا يمنع صحة النسب ، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلا أسمر اللون . ويستدل على ذلك بما رواه لنا بن إياس (٤) حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠١

(٢) المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٣

(٣) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠٠

أما النويرى[١]، والمقريزى[٢]، وأبو المحاسن[٣] فلم يظهر لنا من كلامهم عن هذا الخليفة ما يشعرنا بأنهم كانوا يشكون فى صحة نسبه، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخليفة ينتمى حقيقة إلى بنى العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله بن العباس الهاشمى .

وتنفيذا لرغبة الملك الظاهر فى تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسى له بالسلطة . فخرج فى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضى فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر .

وقد أورد لنا النويرى[٤]، والمقريزى[٥]، وأبو المحاسن[٦] صورة هذا التفويض نقتطف منه ما يلى :

" بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملابس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف... وبعد، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ... وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ — ٢٠
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥١
(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ أ
(٤) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ - ٢٨
(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٣ — ٤٥٧
(٦) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٨ أ — ١٨٨ ب .

الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ... وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ... وأبسط يدك بالاحسان والعدل ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيبا ... وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ... ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيئ السنن وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن ... وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملك الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ... ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ... وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة الى ما كان عليه فى الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ... وشيد منها كل ما غادره العدو منهدما ... وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ... وكذلك أمر الأسطول ... الى أن يقول : والله يمدك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمه فان النعمة ستتم بشكره "

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهى (جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف) فلبسها وسار الموكب من باب النصر فى طريق مفروش بالبسط إلى القلعة وتقدّم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف (١).

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعدّ العدّه لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد، فرتب له بعض الأمراء والعساكر وهيأ له كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل (٢). ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطرا عليه فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك (٣). فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة (٤). وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « ما معنا مرسوم بذلك » وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها الى عانة . وهناك تقابل بالأمير أبى العباس أحمد (٥)، وكان معه سبعمائة فارس من التركمان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيرا هذا الأمير إلى الانضمام الى الخليفة بعد أن أمنه، ثم رحل

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 15-16

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16

(٤) تقع على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) كان صاحب حلب شمس الدين الفرلى قد بايع هذا الأمير بالخلافة عند ما امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها، ولقبه بالحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم، ثم جهزه على رأس جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قابل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨

إلى الحديثة ففتحها من غير مقاومة ، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه فظل محاصرا لها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى[١] .

ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرابغا ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده فى تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ . ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله[٢] .

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط ، بل على ما أنفقه فى سبيل ذلك أيضا من الأموال الكثيرة والمعدات التى تفوق قيمتها وصف الواصفين[٣] . كما أنه رأى أن سياسته فى إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر فى الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التى تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها ؛ ومن هنا نجده أنه يبعث فى طلب أمير عباسى آخر وهو أبو العباس أحمد[٤] . ولما قدم عليه

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثانى ص ١٨٩ أ — ١٩٠ أ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٧

(٣) ذكر المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقه الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقدا و ٦٠٠٠٠ دينار عينا . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣١٧) فقال إنه صرف نحو مليون دينار ذهبا وستة وستين ألف درهم .

(٤) ذكر أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة فى أواخر سنة ٦٦١ هـ . أما المفضل : النهج السديد ص ٩٢ ، المقريزى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ ؛ فيفهم من كلامهما أنه قدم إلى مصر سنة ٦٦٠ هـ ، وأن الملك الظاهر احتفل بلقائه وأنزله فى البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة فى أوائل سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التى لايشوبها غموض وتتفق مع مجرى الحوادث هى التى ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ وهى أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وانهزامه عند هيت على يد التتار ، فكاتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدوم الأمير أبى العباس أحمد ، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة، ثم قرئ نسبه بعد ما ثبتت صحته لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك[1]، ثم تلاه السلطان فبايعه "على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعله فى أمور الدين". فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده "أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه فى القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وعدق به صلاح الجمهور". ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[2]؛ وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، غير أنه فى هذه المرة لم يكن هناك تفكير فى الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية[3].

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بمبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ؛ إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر — على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صفد — رجلين ادّعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم؛ أما الثانى فقال إنه من أولاد الخلفاء[4]؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وفد إليها فى ذلك الوقت أيضا على بن الخليفة المستعصم[5]. ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أمينا لإيوائهم. غير أننا لا ندرى ما الذى دفع الملك الظاهر

(١) ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠
(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٧ — ٤٧٩
(٣) Stanley Lane-Poole. N. I p. 265.
(٤) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩
(٥) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٤

إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد بايع قبل ذلك أميرا عباسيا بالخلافة . لعل السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة فى استمرار الخلافة العباسية بمصر . ويتبين لنا ذلك من عبارة النويرى[1] فى هذا الصدد . وهاك نصها " وفى شهر رمضان من سنة ٦٦٤ هـ وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك الذى كان عند هولاكو وصحبته جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين النجيبى فى أعز مكان . فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جلال الدين بن الدوادار والطواشى مختار فما عرفاه وظهر أنه بخلاف ما ادعاه فسير إلى مصر تحت الاحتياط" . على أننا نرى أن هناك سببا آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته فى إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدده كلما حدثته نفسه بالتدخل فى شئون الدولة بخلعه ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التى كان يتمتع بها سلفه بجعله شخصا عاديا مراقبا سجينا فى القلعة[2] .

ولا شك أن الرغبة الأكيدة التى جالت فى نفس الظاهر بيبرس والتى أراد أن يحققها من وراء عقد الخلافة الاسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر منها دينية وبعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامى الدين ؛ فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل فى الرءوس مالا تعمله أساليب السياسة أيا كان نوعها ومالا تناله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء . ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد ما كان لهم من عز وجاه ؛ فإن ذلك كما يقوض دعائم ملك التتار الذين استولوا على بغداد يهدم سلطة الظاهر فى مصر والشام ؛ وبيبرس لا يهدم سلطانه بيده .

وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت فى هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التى كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتتجلى لنا رغبة الشعب العامة فى إبراز فكرة الخلافة فيما يرويه بن إياس[١] عن بعض الشعراء حين بويع الخليفة بمصر :

يا أَسَد الترك يا رُكْنهم * ويا آخذَ الثأر بعد المخافة
كَسَرْت الطُّغاةَ جَبَرت العُفاةَ * قطعتَ الفراتَ وصلتَ الخلافة

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة فى المجلس الحافل بعظماء الرجال وكبار الدولة مثلا ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شئون الدولة والمالك لزمام الحكم فيها قد أبت نفسه أن ترتفع فى المجلس على منضدة أو أريكة فى حضرة أمير المؤمنين ليريهم أن هذه المنزلة لم يسم اليها إلا الخليفة . فكان ذلك أكبر عامل بعث فى نفوس الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية . هذا الى ما تنطوى عليه نفوسهم من إكبار فكرة الخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس فى البلاد المصرية والشامية أصبح فى غنية عن ظهور الخليفة فى المجتمعات العامة ، كما لم يصبح فى حاجة الى إسماع كلمته للشعب . لذلك نراه يزج به فى أعماق دار[٢] لا يصل اليه أحد من خواص الدولة ورجالات الشعب . ولعل السر فى إخفائه أنه خاف على نفسه من طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقيم مقامه الخليفة فتنتقل الى يده السلطة الزمنية أيضا . ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا الى إحياء الخلافة الاسلامية فحسب وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضا .

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٩٠ ؛ أن الملك الظاهر أنزل الخليفة الحاكم فى مناظر الكبش التى أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رتب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وعائلته كما أمره أن يصعد القلعة فى أول كل شهر ليقدم له فروض التهنئة .

٢ — سياسة بيبرس الخارجية

(أ) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على إحياء الامبراطورية الاسلامية ، لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم فى موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع فى القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠ م ، ويرجع ذلك الى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام الى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق[1] الناصر داود الأيوبى سلطانا عليهم[2] ؛ فكان لابد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

وقد نجح المماليك فى أيام الملك المظفر قطز فى إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس فى موقعة عين جالوت

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الاسلامية فى أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير فى تقدم الصليبيين ، إذ حالفت مملكة دمشق الدولة الصليبية ببيت المقدس سنة ١١٣٩ م ضد أتابك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضح الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173.) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الاسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الاسلامية وقل الخطر الاسلامى الى حد ما ثم زاد وبلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 230) غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وشواهد ذلك واضحة ؛ فالهدنات التى عقدها العادل مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأمورهم والمعاهدة التى عقدها الكامل مع فردريك الثانى كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق Stanley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226. .

من هذا كله نرى أهمية انضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد فى مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

التى مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م[١]؛ وبذلك تهيأت الأسباب التى تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام . أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق ، فانه على الرغم من تطلع المسيحيين الى هذه القوة الناشئة لتساعدهم فى حروبهم ضدّ المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدّسة تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم فى بلاد الشام وتحالفه مع بركه خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم و بين ايلخانات فارس قصيرا . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس الى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء الى سمعة المسيحيين فى غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم فى الدين فى دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع فى تلك المدّة القصيرة التى أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم[٢] .

وقد عمل بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية فى الشرق (من سنة ١٢٦١ — ١٢٧١ م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس الى تلك الامارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية — التى أعلنت عطفها على المغول — وقيليقيا وجهات عكا[٣] . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستخلص البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم .

وسنعرض لحروبه معهم والأسباب التى كانت تحمل الظاهر على غزوهم عدّة مرات فى مواقع متفرّقة والتى جعلت منازلته لهم تستمرّ مدّة عشر سنوات تقريبا وفى كل موقعة ينتزع بلدا أو أكثر الى أن ألجأهم الى الانضواء فى صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين الى عهده . نعم كان بيبرس فى غزواته ضدّ الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

وينتقص مدنهم من أطرافها وإن كان قد لقى كثيرا من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتميم رغباته ؛ ومن ثم لم يزم أمامهم أو يمتنع عليه أحد حصونهم .

على أن بيبرس لم يشرع فى تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة محالفات مع الدول المحيطة بمملكته ؛ فتحالف مع بركه خان سلطان مغول القفجاق ضد خانات فارس وتبودات بينهما البعوث بين سنة ١٢٦١ — ١٢٦٣ م ، كما عقد محالفة دفاعية مع ميخائيل پاليولوجس (Michael Palaeologus) امبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة محالفاته فأرسل بعثا الى منفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم .(١)

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسلهم اليه تطلب الصلح فأجابهم الى طلبهم .(٢) غير أن الفرنجة لم ينفذوا ماوعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم فى الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين فى بناء حصون دمشق .

ولما هدأ روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن فى استطاعته أن يزحف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر فى إغارته عليهم يرجع الى نقضهم العهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض المعاقل ؛ فقام إظهارا لسخطه وغادر مصر الى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م(٣) حتى إذا توسطها جاءته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان اليهم ؛ فكتب اليهم كتابا قال فيه "إن من يتولى أمرا فعليه باليقظة

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 265-266.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٣ — ٤٦٤

(٣) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt,

ومن خفى عليه خروج هـذه العساكر وجَهِلَ ما عليه الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه من كثرتها التى لعـل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منـه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى موقان[1] من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها الى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأى شىء تعملون " . ولمـا رأى الظـاهر مراوغتهم وأنهـم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكاتبونه بندمهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم "ما تقولون"؟ . قالوا : "نتمسك بالهدنة التى بيننا" . فأجابهم بقوله " لم لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ونحن لمـا حضرنا الى هاهنا ما آذينـا لكم زرعا ولا غيره . وأنتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم الينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى الى نابلس ثم الى دمشق ، وما سيرتم أنتم أحدا وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحدا ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا الى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ... ثم إنا سيرنا رسـلا الى [بلاد السلاجقة] الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر الى قبرس ، فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم . هذا مع إحساننا الى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحـرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم" . ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح اسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتى صفد والشقيف وأنهـم غدروا وناصروا لويس التـاسع وصحبوه الى مصر ... الى أن قال " وبالجملة أنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح اسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها ... وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتهم فردّوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم

(١) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

فإنى لا أقبل غير ذلك". فقالوا: "نحن ما ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى ..." فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طيبرس الى كنيسة الناصرة؛ فسار اليها وهدمها ولم يلق من الفرنجة أى مقاومة(١).

لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة؛ بل جرد جيشا الى مدينة عكاء فاقتحم أبوابها، ثم سار بنفسه اليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١ هـ (١٢٦٣م). وكان الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول بالقرب من عكاء واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه.

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل؛ بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق وسرعان ما انتهوا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ففزوا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلأ الجو بالدخان. وحين دخل الصليبيون مدينة عكاء أغلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها؛ غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم فى الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلأت أيدى الجيش المصرى بالأسرى والغنائم(٢). وهكذا ذاق الصليبيون وبال أمرهم ونالوا عاقبة غدرهم وعدوانهم على ما ليس لهم سلطان عليه من المدن والقرى.

وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار؛ غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتدأ فى مهاجمة المدن اللاتينية(٣)؛ فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧
(٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩
(٣) Stevenson: The Crusaders in the East p. 338.

قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها. ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم فى هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حدّ هذه الهزيمة التى نزلت بهم فى قيسارية بل لم يكد ينته من هذه المعركة حتى أرسل جيشا إلى عثليث وحيفا أوقع التخريب فيهما، ثم حوّل وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبى قيسارية وشرع فى مهاجمتها؛ غير أن سكانها (الفرسان الهوسبتاليين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدّة أربعين يوما. وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الدينى بالغا أشدّه فى نفوس الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفى النهاية اضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية وأمّنهم على حياتهم، ثم أكرههم على العمل فى تخريب حصونهم بأيديهم . وعند ما شرع فى العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصلبان مكسرة والأعلام منكسة[(١)] .

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض التى انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا فى صحيفة[(٢)] أوردها كل من النويرى[(٣)] والمقريزى[(٤)] . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تنم عن الفخر والاعتزاز بالنفس، وأنه هو الذى وطد دعائم الدين الإسلامى بهزيمة أعدائه من التتار

(١) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 20.

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٣٨ — ١٣٩ و ١٤٤ ؛ أن الظاهر بعد أن قرر منح أمرائه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التى سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازندار وديوان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانيا ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى غزة وكتب إقرارا بتمليك هذه المنح للأمراء ، وافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٧٧ — ٢٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٣ — ٥٣٤

والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ما قام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التى جعلته يؤثرهم على نفسه و يمنحهم البلاد والضياع .

ما كان الظاهر ينازل الصليبيين و يتجشم المتاعب فى محاربتهم مضحيا بكل ما لديه من عدّة وعدد فى سبيل الإيقاع بهم إلا لعدم وفائهم وتعديهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع وتتابع إغاراتهم على ممتلكات سلطان مصر .

ففى سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص ؛ فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل ما لديه من الجنود (١) . ولما وصل إلى غزة سير جيشا إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ؛ فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فساروا على غرة من العدو ونزلوا على حصن الاكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستولوا على بعض القلاع . أما بيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ؛ فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدّس (٢) . ثم اتجه نحو مقصده فتقدّم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء فى عدّة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن ، ثم سار بنفسه إلى عكاء وأقام بها حتى قدم اليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد (٣) . وهناك وافته الحملة التى سيرت لتخليص حمص بعد أن قامت بمهمتها (٤) .

تجمعت هذه القوى أمام صفد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشتغل بنفسه فى محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 21.

(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٣) كانت صفد فى ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية :
King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 260.

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٥ — ٥٤٦

ذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى؛ وفى نفس الوقت منع شرب الخمر لمعسكره وشدد العقوبة على من تحدثه نفسه بالنهب أو باتلاف بالمزروعات[١].

ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطا ان ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة صفد بعد حصار ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصينا قويا واضطر رئيس الداوية التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكاء سالمين[٢]. فأمنهم أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة[٣].

على أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان[٤] ونكثوا العهد. فقد وجد بيبرس عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض سرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ مامعهم ثم ضرب أعناقهم تل بالقرب من صفد. ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذى أسلم ال فى خدمة بيبرس، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكاء غبر الفرنجة بما شاهده[٥].

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle, Ages p. 267

(٢) King: The Knights Hospitallers in Holy Land p. 261.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٠ ؛ وقد زاد على ذلك المفضل : كتاب ج السديد ص ١٤٩، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم ، فان وجد مع أحد منهم شيئا منعهم فى أخذه انتقض العهد .

(٤) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٠ ، يفهم منها أن نود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان و إليك ها (... حكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائى أن السلطان لم يحلف لأهل صفد و إنما أجلس مكانه يمون أغا التترى وأوقف الأمراء فى خدمته ، فحلف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذى لهم وكان سرانيا ، فنزلوا على يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه اليمين ضربت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحوا من ألفى فارس) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٧ — ٥٤٨ ؛ هذا ، وقد كان الشخص الذى أسلم دخل فى خدمة السلطان فارسا من الداوية . أما الثانى الذى ذهب الى عكا ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من سان الأسبتار . King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

وهنا تبدو لنا صورة يراها المطلع فى ظاهرها غدرا ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تخرج عن كونها جزاء طبيعيا لمن حلت بهم . فلم يتعد بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدرا لو أنه قتلهم بعد التأمين فى وقت لم ينقضوا فيه عهدا . أما وهم قد نقضوا العهد فليس فعله اذن من الغدر أو الخيانة فى شىء . ولا معنى لحمل بعض المؤرخين من أمثال Muir (١) هذا العمل من بيبرس على الغدر والنكث . وفى ذلك يقول ميور " إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقا آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لاتمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التى لصقت بانسانيته بل بإيمانه " .

فهذا المؤرخ أصدر حكما قاسيا على بيبرس تجلت فيه الأهواء والميول وكفانا ماللظاهر من صفات عالية وأخلاق فاضلة ووفاء بوعوده ، أنه لم يفعل مثل هذا بغير من حلت بهم ممن كانوا يطلبون الأمان فيؤمنون وأمثلة ذلك كثيرة فى كل غزواته معهم .

تم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها ، غير أنه فى السنة التالية أعاد بناءها واشترك فى ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين نقتطف منها ما يأتى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدى الفرنج الملاعين وردّها إلى أيد المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أوّل مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوّض عن الكنائس

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 22.

بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التى هى أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منـه ومن خواصه على الرءوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين[1] ... .. " .

فما تقدّم نرى أن غزاوات بيبرس انقلبت منـذ سنة ١٢٦٥ م إلى محاولات فى سبيـل التوسع والفتـح . فاسـتولى على قيسارية وارسوف وسوّى بحصونهـا الأرض[2]، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هونين (Chateauneuf) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة[3] .

وعنـد ما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سيس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦ م علم أن سكان قرية «قارا»[4] يتعدّون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويبيعون من تقع عليه أيديهم بيع الرقيق إلى الفرنجة بحصن عكاء[5] . فلم يرالظاهر بدا أمام هـذه الفظائع من الإغارة عليهم فى عقر دارهم وضربهم ضربة شديدة، فأحرقت صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحوّلت كنيستهم إلى مسجد وأخذ شبانهـم مماليك فى أيدى المـاليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية[6] .

بعد أن استقرّ مقام الظاهر بمصر توجه فى جماعة من أمرائه إلى بلاد الشام . فنزل غزة ورحل منها إلى صـفد وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ — ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole:A History of Egypt in the Middle Ages p.267.

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حمص . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٢ — ٥٥٣

(٦) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم . فعاد ثانيا إلى صفد[1] ، ثم حاول أن يفاجئ عكاء بهجومه ؛ فسير فرقتين من الخيالة متخفيتين بأن ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن كشف أمرها ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة[2] .

ولما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية فى ذلك الوقت ترغب فى عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛ فعقد الصلح مع أميرة بيروت[3] ومدينة صور التى اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال[4] وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ، كما عقدت الهدنة بينه وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب[5] . وقد أسهب القلقشندى[6] فى بيان هذه المهادنة ونكتفى هنا بذكر بعض ماوقع عليه الصلح بين الطرفين لنتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولنتعرف أيضا حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه الهدنة على :

(١) أن يكون أمده عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدئ من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ .

(٢) ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٨

(٢) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262

(٣) ذكر العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت الى الملك الظاهر وهو بصفد فى شعبان سنة ٦٦٥ هـ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين الى قبرس ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا اليه مال هؤلاء التجار و يطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٤) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التى أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد قتل بصور فقرر السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويرى ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٨

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٦) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١ — ٣٩

(٣) ألا يأخذ بيت الاسبتار الجزية التى كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماه وشيزر وأفامية وأبى قُبيس .

(٤) أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والجباية" نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاسبتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هى أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها فى الأهمية يطول بنا المقام فى ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيرا من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصليبيين .

وفى السنة التالية (٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م) وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكاء ظهر بغاة أمام يافا فى ٧ مارس سنة ١٢٦٨ م — وكانت المعاهدة التى بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦ م ولم يجددها مع ابنه (Guy d'Ibelin)[1] — فانقض عليها من غير سابق انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها[2] . ثم سار السلطان شمالا قاصدا الشقيف أرنون التى كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصينا قويا ، فلم يستطع الوصول إليها إلا فى ٦ أبريل من السنة المذكورة ، واستخدم فى هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة أيام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها[3] .

(١) ذكر النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عند ما قدم إلى صفد لبناء قلعتها وفد عليه مقدم يافا وطلب منه أن يجدد عقد الهدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

(٢) زاد العينى (عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا لجأ أهلها الى القلعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وتسلم القلعة منهم .

(٣) ذكر المفضل (النهج السديد ص ١٦٤ — ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتتلخص فى أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من الفرنجة المقيمين بعكاء يتضمن إفادة النواب =

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية ؛ فسار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها ، ولم يستطع الأمير بيموند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة[١] ، ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاه صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فلم يتعرض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماه ؛ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه[٢] ، وبدأ يهاجمها فى أوائل مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ) ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا أسر أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس فى ذلك الوقت يرغب فى عقد الصلح لوقف تيار القتال حقنا للدماء التى تراق ، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذى أسره فى أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة ؛ غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بدا من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها فى وجه السكان ، وانقض عليهم ذبحا وقتلا وأسرا . وكان عددهم نيفا ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس[٣] .

وحين رأى رجال الحامية — وكان عددهم ثمانية آلاف — أن المدينة وقعت فى أيدى المسلمين ، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها فى اليوم التالى على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام[٤] .

- بالشقيفين أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتابا يذكر فيه أمارات بينه وبين أهل عكاء ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسماؤهم فى الكتاب ، كما أرسل كتابا آخر للوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره فيه بأنه إن احتاج إلى مال يأخذه من ملك ذكر اسمه فى الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه المكتوب وقع الخلاف بينهم فى الوقت الذى كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف .

(١) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

(٤) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263.

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذى أنزله بالمدينة بل أسر حامية القلعة[١] ووزع أفرادها على الأمراء[٢]. ثم أرسل إلى بيمند — وكان إذ ذاك بطرابلس — رسالة تهكم يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات التقريع والسخرية. وقد أوردها كل من النويرى[٣]، والمفضل[٤]، والعينى[٥]. وسنكتفى بذكر بعض فقراتها لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضرغام بيمند فخر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراب العائر والأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض ... وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأول وتملكت الحرائر... وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والمواشى، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب ... وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ... وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى لدينا جارية ... وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم. رحلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا

---

(١) يفهم من عبارة النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد، والمفضل : كتاب النهج السديد ص ١٧١ — ١٧٢، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن يأخذهم أسرى. واليك نص عبارة النويرى "...وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد فتحاشروا بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى فالوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة ؛ فاستغاثوا للسلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى".

أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافا كبيرا فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويرى، لذلك نكتفى بالإشارة إليها.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ — ٣١١

(٤) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ — ١٧١

(٥) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ — ٥٤٢

بأنطاكية فى مستهل رمضان. وفى حالة النزول خرجت عساكرك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل فى مراجعة أقرانك ودخل إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا فرأيناهم إلى رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ... فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر ... فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ... وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب خبرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبرا.

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير بدرالدين بيسرى الشمسى، ثم أمر باحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه[1]. وعلى أثر انتهائه من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة، وبذلك تركها أثرا بعد عين[2].

هزت كارثة أنطاكية جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا الحصن خاليا، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها، ثم أعدها بالعدة والرجال، وأصبحت منذ ذلك الوقت فى عداد الحصون الإسلامية[3]. كذلك هال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا فى موادعة الظاهر كيلا يناهم ما نال إخوانهم؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضة فى الصلح، وبدأت المفاوضة فعلا؛ ورافق بيبرس سفراءه فى زى خادم ليتعرف خباياها ويدرسها تمهيدا لمحاصرتها فيما بعد، وكذلك عكاء — وهى البقية الباقية من دولة

(١) زاد على ذلك العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٩ ه؛ فقال إن ماخص بيبرس من غنائم أنطاكية أرصده لعمارة الجامع الذى أنشأه بالحسينية بالقاهرة.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠؛ المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ (٣) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ ص ٥

بيت المقدس — طلبت المفاوضـة والصلح[١] فقدمت رسـل صاحبها إلى السلطان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه فى هذا الأمر[٢] . فتقرر عقـد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكاء مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيداء على حالها . غير أن هذه المواد عند ما عرضت بعكاء لإقرارها لم تصادف قبـولا[٣] .

أما بلاد صور فقـد أغار عليها بيـبرس قبل أن يعود إلى مصر فى أواخر يولية سنة ١٢٦٨ م[٤] . وعلى الرغم من أنه كان من سـياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية ، فان البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادنة . وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى فى ربيع سنة ١٢٦٩ م على أراضى عكاء وصور ، وساهم بيبرس بنفسه فى هذه الحركات وتهادن مع بيروت وما جاورها من البلاد[٥] .

لم تفتر همة بيبرس الحربيـة عن مناوأة الصليبيين ، فكان يستولى على معاقلهم الواحد بعـد الآخر رغم ما كان يصـل إليهم من المدد من أوربا[٦] . وكان السلطان ينظر دائمـا إلى بوهمند السادس كأكبر خصم له . والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين ؛ فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمد إلى إتمـام إسقاطه بالاستيلاء

---

(١) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤

(٣) يفهم مما ذكره المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧١ فى هـذا الصدد أن السلطان أرسل إلى صاحب عكاء محيى الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكاء على هذه المعاهدة وكان معهما هدية فيها عشرون نفسا من أسرى أنطاكية ، فلم يوافق على بعض موادها .

(٤) أورد العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠ ، السبب الذى من أجله أغار بيبرس على مدينـة صور ، فقال إنه عند ما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءته امرأة فى أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنها لما دخل صور غدر به صاحبها وأخذ ماله ، فركب السلطان وشنّ الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة .

(٥) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 342.

(٦) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 25.

على طرابلس. وكان من الضرورى قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية، لذلك شرع فى الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ فى محاصرته فى شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١ م)، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها فى ٣٠ مارس من السنة المذكورة، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة؛ فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم.

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية بحياتهم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة؛ فلم ير المسلمون بدا من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملجأ الأخير لهؤلاء الفرسان، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة. لذلك أرسل الى الحامية خطابا مزوّرا[1] على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوسبتاليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن. وكان من أثر ذلك أن فتح الهوسبتاليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم. وفى اليوم التالى ساروا إلى طرابلس[2].

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار[3] — وهو صاحب حصن الأكراد — كتابا[4] هذا نصه: "إلى (افريرأوك) جعله الله ممن لا يعترض

---

(١) ليس هناك فى المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطابا مزورا لحامية حصن الأكراد. ونحن نستبعد ذلك على بيبرس. ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقية لأشار إليها Stevenson, Muir لا سيما وأن Muir خاصة كثيرا ما يخى باللائمة على بيبرس فى بعض مواقفه. وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سلموا القلعة وطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس.

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار فى هذه السنة Hugh Revel. King: Op. Cit p. 271؛

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦؛ العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٦٣

على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا نعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر. نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته و بنيته وخليتـه وكنت الموفق لو أخليته واتكلت فى حفظه على اخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيدا وتشقى".

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح والاستكانة خير ما تستطيع أن تكسب. فلم يكد بيبرس ينتهى من حصن الأكراد حتى سارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح و بعث مفاتيح حصنه إلى السلطان، فصالحه على أن يرسل اليه نصف ما يتحصل من غلال بلاده. وعين واليا من قبله على هـذه البلاد. كذلك قدمت اليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس، وقرر أن تكون الهدنة بينه و بينهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام[1].

ولما تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكراد رحل الى حصن عكار[2]، وبدأ هجومه عليه فى ١٧ رمضان سنة ٦٦٩ هـ (٢٩ إبريل سنة ١٢٧١ م) وشددت عساكره الحصار. وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان؛ فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حياتهم[3]. و بذلك تمكن من الاستيلاء على هـذا الحصن ثم استعد لمهاجم طرابلس بنفسه. ولكن أخبار

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالى طرابلس وهو مبنى على جبل بنفس الاسم.

Le Strange: Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧

قدوم الأمير ادوارد[1] و بعض الصليبيين الى عكاء فى ٩ مايو سنة ١٢٧١م جعلته يرضى بعقد الصلح[2] .

على أن بيبرس قد شرع فعلا فى مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكره بها وشددت الحصار عليها ، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يقول له : "ما مرادك أيها السلطان فى هذه الأرض؟" . فقال : "جئت لأرعى زرعكم وأخرب بلادكم ثم أعود الى حصاركم فى العام الآتى" . فأرسل اليه أمير طرابلس يستعطفه و يطلب منه عقد الصلح[3] ، فسير اليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار بمقترحات لعقد الصلح ، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال وقال للأميرين : "إن السلطان لما أخذ أنطاكية منى بالسيف كان عذرى مبسوطا عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب (كذا فى الأصل) منى أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجبه خوفا من الفرنج أن يعيروني بتسليمى البلاد من غير حرب وقتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بى أن أسلم اليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج" . فعاد الأمير سيف الدين الى السلطان وأخبره بذلك ، فرأى أن يعامله بالحسنى و يتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب و بانياس فتكون مناصفة بين

---

(١) هذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على انجلترا باسم (Edward I). وقد أبحر من Southampton فى أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبته ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مركبا ؛ فلما وصل إلى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر إلى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير ادوارد إلى قرطاجنة ووصل إلى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ثم أبحر فى الربيع إلى عكاء . King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268.

(٢) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343 ; King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦

السلطان والداوية والاسبتارية، فرفض بوهمند أيضا هذه الشروط، فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا، فلم ير بوهمند السادس بدا من من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس الى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين، وذكر له مافتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه. وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفرني عنه وتملأ قلوب عسكري رعبا[1]".

وهكذا نم للظاهر الكثير من رغباته ومآربه من الصليبيين الذين كان يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها الى حوزته . وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الجدية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . ففي أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصفد[2] فسار منها إلى حصن القرين[3] وهاجمه حتى استولى عليه في ١٢ يونيه[4] . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ — ١٩٥

(٢) مدينة في جبال عاملة (وهي من جبال لبنان) المطلة على حمص . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يقع هذا الحصن بالقرب من صفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg
King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271
وقد ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ — ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم اليه رسولا صاحبي قبرس وطرابلس وتحدثا معه في الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : " البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك في هذا الحصن وسألك أن ترحل عنه " فقال السلطان : " كلامه عندي مقبول، ولو جاءني رسوله قبل نزول عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكنني الرحيل عنه " . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرس فقال : " صاحبي سيرني لأنظر إلى السلطان هل رحل أم لا ؛ فانه بلغه أن العساكر تقدمت إلى مصر " . فقال السلطان : "رحلت من عساكري الأثقال والضعفاء، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة نقضيها له فانه عندنا ضيف؟" فقال الرسول : "لم يأمرني بشيء" . ثم مضى وعاد فقال : " حاجته عندك أن تدفع له بعلبك ونابلس " ؛ فقال له السلطان : " إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأولا وتطلبوا مني حصوني؟ " .

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, pp. 343-344.

المسلمين طلبوا الأمان فأمنهم السلطان وقرر خروجهم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحا[١]. ثم سار السلطان إلى أبواب عكاء، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت[٢].

وفى هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكاء وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندى؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه، فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للإستيلاء عليها؛ غير أن هذا الأسطول مالبث أن حطمته عاصفة عند شواطئها. وفى شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدم الأمير إدوارد وهيو ملك قبرس إلى الناصرة، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين، غير أن أملهما هذا لم يتحقق، فانتهز إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر فى شهر يوليه من هذه السنة وأغار على الرملة واللدّ[٣].

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون فى عكاء بإغارة أخرى على البلاد المجاورة لقاقون (Kakun)[٤] عند ما كان السلطان منشغلا بصدّ غارة التتار فى نوفمبر من السنة المذكورة؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسى فردّهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارسا[٥].

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس فى جهات عكاء وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الجديد من أوربا ولرغبته فى التفرغ لصدّ غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام. فاتفق مع رسل صاحب

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ — ورقة ٩٩

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٣٢

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن بفلسطين بالقرب من الرملة. ياقوت: معجم البلدان.

(٥) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٥

صور على تقسيم بلادها بينه و بين الفرنجة[١]، وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام[٢]

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان فى كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم و يهزم جيوشهم و يستولى على حصونهم ومدنهم واحدة تلو أخرى. ولم نرهم فى أية موقعة نالوا منه شيئا أو كتب لهم النصر عليه . وأسباب ذلك لا تخفى على الباحث إذا ما جال ببصره مدققا فى حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التى حلوا بها وقاتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم و بذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال . ومن أهم الأسباب التى أدّت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم فى البلاد الشامية حتى آل أمرهم فى نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء فى حصن أو حصنين :

(أولا) كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم فى الدين متنافسين متحاسدين ، قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع ، وذلك مما كان يؤدّى إلى فشلهم فى حروبهم .

(ثانيا) لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع و يدينون له بالطاعة ، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذى من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائية عن أوطانهم[٣] .

(١) وضع المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥ هذا الاتفاق فقال إنه تقرر أن يكون للفرنجة من بلاد صور عشرة بلاد و يكون للسلطان خمسة بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم و بينه .

(٢) Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (Introduction) pp. XXX - XXXI.

(ثالثا) كانت مصالحهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التى أتوا منها إلى تلك الديار . وقد تجلى هذا الأمر فى الفرسان المختلفين ، وكثيرا ما كان يقاتل بعضهم بعضا[1] . وفى هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوهم ما لا يخفى .

(رابعا) نقض الصليبيين العهود التى كانت بينهم و بين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل .

(خامسا) محالفة الصليبيين لهولاكو زعيم التتار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة المماليك فى مصر ومهاجمة بلادهم . وقد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سببا فى تحالف الظاهر مع بركه خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية ، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى فشل الصليبيين فى غزواتهم وهزيمتهم فى حروبهم . وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه . ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم ، فكان الفشل المحتوم نصيبهم .

(ب) غزو جزيرة قبرس :

كان أهل قبرس كثيرا ما يمدون الصليبيين ببلاد الشام بالمال والرجال . ولا عجب فى ذلك فهم أهل ملة واحدة يجمعهم دين واحد . فليس غريبا إذن أن يقوم هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم فى الدين ، ولا سيما أنهم كانوا جميعا من الفرسان المتعصبين لدينهم المتحمسين ضد أعدائهم المسلمين . وكانوا لهم ردءا كلما داهمهم خطر من الأخطار ، بل كانوا واسطة اتصال بينهم و بين مواطنيهم من أهل أوربا .

لذلك نرى بيبرس بعد إغارته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولا لمحاربة قبرس التى ساعدت عكاء مساعدة جدية[2] . وكان أهلها لما نزل السلطان على حصن

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (Introduction) p. XXIX

(٢) Sir William Muir, Op. Cit. p. 28.

الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة، فخرج إليهم فى عدّة مراكب، فهاج عليهم البحر وحطم ستين مركبا وتابع ما بقى منها السير إلى عكّاء[١]؛ فأراد بيبرس أن يغتنم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى قبرس، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م)؛ غير أن عاصفة شديدة هبت عليها بالقرب من الجزيرة فحطمت منها أحد عشر مركبا عند ثغر الخمسون (Limassol). ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها من المسلمين[٢].

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث لأسطوله، إذ قال له: "إن صاحبي يسلم عليك و يقول لك قد أخذت مراكبك"، فقال السلطان: "قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيفى، ولو سلموا المراكب لأخذوا جزيرته بحول الله وقوّته. وقد أخذت فى سفرتى هذه أربعة عشر حصنا. ولا شك أن العين لها حق والحمد لله الذى فدى عسكرى بالملاحين والعوام وأرجو من الله تعالى تعويض ذلك[٣]".

لم يكتف بيبرس بما قاله لهذا الرسول، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتابا جاء فيه: "إلى حضرة الملك (أوك) ... ... جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله. نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير. وقد كنت عرفتنا أن (الهواء) كسر عدّة من شوانينا ... ... ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين. وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة

(١) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩؛ العينى: عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٥٦٤

(٣) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٠

هـو العجب ... ... وما النصر بالهواء مليح إنمـا النصر بالسيف هـو المليح
و إن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعنـدنا من بحرية المراكب ألوف ... ...
وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنـا الخيول ... ... فلئن كنتم أخذتم لنـا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، و إن استوليتم على سكان فكم أخلينـا بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا فيرى أينا أغنم . ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم"[1] .

لم تفتر همة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله، بل شرع فى إنشاء أسطول آخر[2]، غير أنه لم يعاود الكرة فى مهاجمة جزيرة قبرس لانشغاله بمحاربة الصليبيين والمغول . وقد تمكن فى سنة ٦٧٣ هـ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس، فأرسل الرسل إلى صور لا بتياعهم، فتغالى الفرنجة فى بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرماة لطائفة منهم؛ فلم ير بيبرس بدا من إغراء الموكلين بحراستهم بالمـال فأطلقوا سراحهم وساروا إلى القاهرة. فلما علم بذلك الفرنجة بعكاء قامت الفتنة بينهم[3] .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

كان يقطن ببلاد الشام فى الوقت الذى عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية فى الشرق طائفة من الاسماعيلية[4] حاول صلاح الدين عبثا القضاء عليها وظلت

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ — ١٠١

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٥ (٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ ص ٦ (٤) الاسماعيلية هى فرقة من الشيعة عرفت أيضا بالسبعية لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عنـد الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سـنة ١٤٣ هـ فى حياة أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر والأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية، فتلمسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سـنة ٥١٨ هـ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم الحشاشين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) فى الشمال الغربى من بلاد فارس، ثم تفرع من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب. Enc. Isl. Arts: Assassins و Ismailiya وهذا الفرع الشامى هو الذى حوّل بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاته تمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون الى مسالأة هؤلاء الاسماعيلية[١]، وتعدى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم و يعملون على اتقاء شرهم بالهدايا التى كانوا يرسلونها اليهم والتى رأى بيبرس أن يفرض رسوما عليها ليقلل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك[٢].

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت الى جانب الصليبيين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان الهوسبتاليين، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يمتنع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التى كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمراء حماه وشيزر وأفامية[٣]. وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزودة بالأموال التى كانوا يحملونها من قبل للفرنجة[٤].

ولما رأى نجم الدين الشعرانى صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التى يقدمها لسلطان مصر كثيرة أرسل اليه يستأذنه فى إنقاصها. وكان بيبرس فى ذلك الوقت مستاءا منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية، فأمر بعزله هو وولده وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة[٥] بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف[٦] وبلادها خاصة بالسلطان؛ ثم أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير

---

(١) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩؛ المقريزى : السلوك ص ٥٤٣

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262; Steven-son : The Crusaders in the East p. 340.

(٤) المقريزى : السلوك ص ٥٥٧

(٥) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام.

(٦) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام وهى واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من حمص. ياقوت : معجم البلدان Le Strange : Palestine under Moslems, p. 507

عز الدين العديمى فامتنع أهلها عن تسليمها أول الأمر ، ولم يلبثوا بعد ذلك أن فتحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ، فلم يرتجم الدين وولده بدا من الدخول فى طاعة بيبرس ، فطلبا منه السماح لهما بالحضور بين يديه فأجابهما السلطان الى طلبهما . وعندما قدم اليه نجم الدين ولاه حصون الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين ألف درهم ، كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار[١] . ثم أخذ السلطان بعد ذلك (١٢٧٠ — ١٢٧٣ م) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر[٢] ، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس فى مقابل ذلك بعض الأراضى المصرية ليستوطنوها . فكان فى هذا القضاء على قوتهم التى شغلت الظاهر وجيشه ردحا من الزمن . ومن العجيب فى أخلاق بيبرس أنه بعد إجلائهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم فى قضاء أغراضه[٣] .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١ — مغول فارس :

لم ينس المغول ما حل بهم فى موقعة عين جالوت ، فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها . فرأى بيبرس أن يتحالف مع بركه خان[٤] سلطان مغول

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ المقريزى : السلوك ص ٥٨٦ — ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270. وقد أورد المقريزى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الإسلام وشرائعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاكو . ويرجع ذلك لعدة أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاكو ببلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك لم يرق فى عينه تأسيس دولة هولاكو بفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركة حسب وصية جنكزخان (Enc. Isl. Art. Berke) . وهناك سببان آخران لهذه العداوة التى كانت بين بركة وهولاكو ؛ أولهما عدم مظاهرة بركة للخان الأعظم قوبيلاى

القفجاق ضدّ ايلخانات فارس ؛ غير أنه لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل ضرب الطرق والوديان المؤدية الى الشام حتى لا يجد المغول اذا تقدّموا ما يحتاجون اليه من الميرة[1]، كما أن هولاكو تحالف مع المسيحيين فى الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصليبيين لكى يقوى بذلك على صدّ هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر[2].

وقد كان لكل من التتار والصليبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف. فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم فى الحروب ضدّ الدّولة التى هزمتهم بالشام — وهى مصر — وردّتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم فى غزوهم . والصليبيون لم ينسوا الأمر الذى من أجله احتلوا المدن الشامية، كما لم ينسوا ذلك العداء الدينى بينهم وبين المسلمين، فأرادوا هم أيضا أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيرا فى اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعا يدا واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين .

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطانا كالظاهر يطمئن على بلاده فى الوقت الذى كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر . ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة ، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التى كانوا يغيرون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك .

ففى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصرها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيفان

= وانتصاره لأخ صغير له اسمه (Arigha-Buga)؛ فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر، وثانيهما أن هولاكو منذ أن صار بركة ملكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحرب . (وكان المعتاد أن يجمع التتر ما يحصل من البلاد التى يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام : قسمان للخان الكبير، وقسمان للعسكر، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٠١ — ١٠٣

(١) Stanley Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226.

الملقب بسم الموت ، ثم سار على أثره إلى أن وصل الى غزة . وهناك علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها ولى التتار هار بين وتركوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعمة سائغة لجنده.(١)

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعمارة ماخرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام وباعداد كل مايحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التى رماها التتار فيه . وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه مالاقوه من شدة وعناء فى إخلاء ذلك الخندق ، فكتب إليهم : "إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة ، ماهنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا فى هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور"(٢) .

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التى كانت تتوالى على نواحى متعددة من بلاده ، كما تبين لنا ملاطفته لأمرائه وتشجيعه لمن تذمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم فى غزوهم ، وأن غيرهم من بقية الجيش لاينالهم من العناء مثل ما يلقون ، كما يتضح لنا أيضا ما تنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجدّ فى محاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تتم أمانيه ويريح بلاده من غاراتهم وإفسادهم فى الأرض .

وهكذا ظل المغول فى فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو(٣) سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وخلفه ابنه أباقا(٤) الذى سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٢٥

(٣) اختلف المؤرخون فى اليوم الذى توفى فيه هولاكو ، ففى أبى الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢ أنه مات فى تاسع عشر ربيع الآخر ، وفى مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٤٥ سابع ربيع الآخر ؛ وفى المقريزى : السلوك ص ٥٤١ ، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفى فى يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر .

(٤) ورد هذا الاسم فى المصادر العربية أباغا ، أبغا .

الصليبيين ؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus) ؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين . غير أن علاقته بالبابوات والملوك المسيحيين فى أوربا كانت سياسية أكثر منها دينية ، فكان يراسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذى كتب إليه كتابا سنة ١٢٦٧ م ، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسسكان عام ١٢٧٨م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للغول . أما الغرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدّسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدّة[1] .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشترك الذى كان يهدّد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاكو المغولية ، وسنرى أنها واصلت انتصارها على جند ابنه أباقا الذين كانوا يتهزون فرصة اشتغال الظاهر بمحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أثناء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صفد إذ أغاروا على الرحبة[2] ، غير أنهم مالبثوا ان ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداء كان مستحكما بين المغول والمماليك فى ذلك الوقت ، فقد فكر أبغا فى سنة ٦٦٧ هـ فى عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له فى ذلك صاحب سيس ، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف فى هذه السنة كتابا ينبئه فيه بأن رسول أبغا يود مقابلته ، فبعث السلطان أميرا من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق ؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه كتاب أبغا وقد جاء فيه : "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه

(١) Browue, A Literary History of Persia Vol. III pp. 18-19

(٢) بلدة واقعة على نهر الفرات .

هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا[١] " .

غير أن هذه الرغبة فى عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا : " اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض[٢] " . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع الصليبيين فى السنة التالية على الاغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقيما بالأسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل، فوردت عليه الأخبار بأن التتار أغاروا على الساجور[٣]، فسير الأمير علاءالدين البندقدار إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربتهم . وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين[٤] .

غير أنهم عاودوا الكرة فى سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم — وكان الظاهر إذ ذاك مقيما بدمشق — فلما رأى جدّهم فى إغارتهم، أرسل إلى مصر يستدعى الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وثلاثة آلاف فارس لطرد التتار وردّهم إلى بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب، وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهاء فريقا من جيشه على رأسه أحد الأمراء[٥]. وسار السلطان إلى مصر لما علم بإغارة الصليبيين على قاقون، وظل أمراؤه يحاربون التتار حتى استولى الأمير علاءالدين طيبرس الوزيرى على حران، ثم عبر الفرات وعاد إلى مصر؛ فانتهز التتار فرصة غيابه وقدموا إليها وهدموا أسوارها[٦] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٤

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩

(٣) نهر بجهات منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان

Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527 .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٨٤

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥

(٦) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا[١].

وعلى الرغم من هذه السياسة الوديّة التي اتبعها بيبرس إزاء سلطان المغول في فارس، فإنه بلغه في العام التالي (٦٧١هـ) — وهو ببلاد الشام — أن التتار قصدوا الرحبة وتقدّموا منها إلى البيرة، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال. ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر، ثم شرع هو وعساكره في عبور الفرات وألقى المراكب في النهر، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان في النهر، وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار، وهناك أخذت جنوده في مناوشتهم وقتلوا منهم عددا كبيرا[٢]، ثم عاد السلطان وعساكره في النهر. ولما وصل إلى الشاطئ الشرقي من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فسار إليها ومنح واليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق[٣].

لم يرعو التتار بهذه الهزائم التي كانت تنزل بهم، إذ نراهم في سنة ٦٧٢هـ يشرعون في الإغارة على بعض البلاد في الوقت الذي قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام. ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغا قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعي جيوشه فلحقت به عند يافا، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق، غير أنه لما تقدّم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر[٤].

(١) المقريزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٠٢

(٢) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢١٢ — ٢١٥

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٣٤

(٤) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢١٧ — ٢١٨

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاها آخر فى مناوأة بيبرس، فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفا من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه[١]. غير أنهم ارتدوا عنها عند ما بلغهم تقدّم السلطان إليهم. ويرجع السبب فى ذلك إلى خروج البرواناة عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده. وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قلج أرسلان. غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين[٢]. ولما علم بتقدّم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمدّه بجيش من المغول، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرا ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبى السلطان بيبرس طلبهم. وفى هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية[٣] فحال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر. وعند ما وصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة. وظل البرواناه مقيما بقيسارية، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر[٤].

---

(١) البرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب. أبو الفدا: ج ٤ ص ١٠؛ وكان فى يد معين الدين هذا مقاليد الحكم فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ. Enc. Isl. Arts: Kilidj Arslān IV, Mu'in al-din Sulaiman Parwāna.

(٢) مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان وهى قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف. ياقوت: معجم البلدان؛ Le Strange: Palestine Under Moslems p. 277.

(٣) قيسارية أو قيصرية: اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وبشمالى افريقية وأسبانيا أيضا. ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطئ على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبى حيفا، ومنها قيصرية الروم وهى المقصودة هنا وتقع على نهر قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك. ياقوت: معجم البلدان؛ (Enc. Isl. Art. Kaisariya)

(٤) العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

على أن أهم الوقائع التى دارت بينه و بين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع فى السفر فى رمضان سنة ٦٧٥ هـ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذا لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر، فوصل إلى دمشق ورحل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتـار والروم على لقائه ومحاربتـه[1] ؛ فرتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصبت عليهم الخيول الاسلامية من الجبل انصباب السيول وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا، وانجلت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار[2] .

ولمـا انتهت الموقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها[3]، ثم لم يلبث بعـد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير فخرج الأهالى يتقدمهم القضاة والأشراف، وقابلوه فى موكب حافل تصدح فيـه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فنزل بدار السلطان[4]، ثم جلس على عرش قيسارية حيث تولى السـلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبـل عليه الأهالى فقدّموا له فروض الطاعة، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية وقسم ثروة البرواناه على جيوشـه[5] .

ولمـا فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة ، ثم رأى أن بقاءه بها ربمـا كان خطرا عليه وعلى البـلاد الشامية لتوقع معاودة التتـار بجموعهم انتقاما لمن قتـل من جيوشهم وتخليصا لمن أسر من

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٧ — ٦٢٨
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٨
(٣) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧
(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 28.
(٥) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271

رجالهم، فرحل إلى الأبلستين ومر على مكان المعركة ايرى جثث القتلى من التتار؛ وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم. وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار كثرة من قتل من التتار[1].

وقد كان ما توقعه بيبرس. فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين. ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثرا عميقا أسال دموعه[2]، وتغير على البرواناه عند ما علم أنه كان السبب فى حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم[3]، ثم رحل إلى قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها. وعند ما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب وقتل منهم خلقا كثيرا[4].

أما عن موقف البرواناه فى ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معه إلى معسكره على أثر انتهائه من قيسارية؛ وهناك استشار أمراءه فى أمره فأشار عليه فريق منهم بقتله، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه خراجها. وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه؛ غير أن نساء أمراء المغول الذين قتلوا فى المعركة عند ما علمن بذلك اجتمعن وأقمن ثورة فى وجه أبغا، فكلف أميرا من بلاد سيس بأن يأخذ معه مائتى فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان معين ثم يقتله، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغا يود أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضأ ويصلى، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه[5].

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III, p. 19؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٧٠ (٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢. (٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 28-29. (٥) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٧٤ — ٢٧٥

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته الى مقاتلة التتار وقد تحمـل هو وجيشه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات ما يجعله حقيقا بالاستماتة فى الدفاع عن هـذا البلد وتخليصه نهائيـا من يد التتار ، وعلم ما حاق بهم من جيوشـه والسبب الذى من أجله هاجموا المدينة بعد أن هزموا عندها . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض الموقعة ومسيره الى حارم أمر بتسيير جيشه الى مصر، وانتقل هو أيضا من حارم ذاهبا الى دمشق . وفى هذه الآونة انقض أيغا على المدينة، ولم تتح الفرصة للظاهر أن يتراجع اليهـا ليقيها شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاقى الجيش فى هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس الى قيسارية بعد مغادرتها، ذلك أنه بعـد أن فارقها الى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردّهم على أعقابهم

٢ — مغول القفجاق :

لم تكن العلاقة بين بركة خان والظاهر كما كانت بينـه وبين هولاكو وخلفه . ولا عجب إذا رأينا القبيلة الذهبية[1] تخالف أبناء جلدتهـا من التتار وتدخل فى حلف

(١) لما قسم جنكز خان امبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القفجاق ويطلق عليهـا اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبه الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى . وكان غالب أهلها تركا وتركمان . ولما مات جوجى سـنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) انقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعـة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وثانيهم باطو (Bātū) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلنته ملكا عليها واعترف بذلك جنكز خان نفسه قبل مماته . لهـذا انكمش سلطان أوردا إلى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde). وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذ بها عاصمة سماها (Sarāi) وهو الذى غزا أوربا فتوغل =

obeikandl.com

مع المماليك بمصر مع ما هم عليه من العداء لاخوانهم تتار فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام[(١)] . وكان لإسلامه وما كان بينه و بين المماليك بمصر من الصلات الوثيقة أثر كبير فى انتشار الإسلام بين أهالى تلك القبيلة . فقد حذا حذوه الكثير من زعماء المغول فى هـذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيلولتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا فى خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاكو ألد أعدائه[(٢)] .

ولما علم بيبرس باسلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاكو[(٣)] . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة و بينه من العداء ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاكو مع

= فى الروسيا و بولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠ هـ) [١٢٣٧ — ١٢٤٠ م] ، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجى خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقيها وغربيها ؛ فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم ما نجوخان الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطو خان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفى فى نفس تلك السنة ، فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجى خان . Enc. Isl. Arts : Cingis Khan, Bātū Khan, Bereke.

(١) يقال فى سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الاسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقد كاشف أول الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الاسلام وحبب اليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهـذا الدين الجديد . و يذكر الجوزجانى الذى جمع تاريخه فى حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الاسلام منذ طفولته . ولما شب و بلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . و يذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلما ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس فى جيشه سجادة للصلاة حتى اذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن فى جيشه من يتعاطى أى مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين و رجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان فى حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدينية تشغل أكثر مجالسه ، كما كان سنيا مغاليا شديد التمسك بدينه . Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 228-229.

على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت منذ سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) كرسيا لأسقفية مسيحية . Enc. Isl. Art : Bereke

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥

الصليبيين ضدّ سلطان مصر ؛ فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الاسلام — فى كفة واحدة ضدّ عدوّهما المشترك الذى يريد الإغارة على بلادهما والقضاء على دينهما .

وقد دخل بركة خان فى حلف مع الظاهر بيبرس الذى ابتدأ تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية، يبلغ عددها المائتين، وكانوا قد فروا إلى سورية لما ظهر لهم من العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه[1] وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق وهى المعروفة الآن بباب اللوق — كما سيأتى — وبعث إليهم الخلع والأموال، وأمّر كبراءهم وأدمج بعضهم فى سلك المماليك ومنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم[2] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه " ... فليعلم السلطان أننى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا نعصبا لدين الإسلام لأنه باغى (كذا فى الأصل) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصادى ورسلى صحبة رسل السلطان ... ووجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضرا فى الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه من عجاب القتال، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعدات، لأنه أقام إماما من آل عباس فى خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما بلغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحى من أيدى الكفار[3] ... " .

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

أرسل إليه السلطان الرد[١] فى سبعين ورقة بغدادية[٢]. وأنفذ إليه هدية[٣] مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى والشريف عماد الدين الهاشمى ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن امبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان[٤]، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه ؛ فأخذ السلطان إقرارا منهم بذلك وأرسل إلى الامبراطور راهبا يونانيا ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتابا أغلظ له فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسس إلى الامبراطور أطلق رسل الملك الظاهر[٥]، فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزوينى فأنزلهم فى منزلة

(١) ذكر ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب " أن بيبرس جمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاغراء على (هولاكو) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هى عليه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى ... " .

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . ويستعمل فى كتابة المصاحف ومكاتبة كبار الملوك . وفى ذلك يقول القلقشندى (صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦) " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ؛ وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها " .

(٣) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ؛ أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات للصلاة متنوعة الألوان وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردها مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهى الفيل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس لبركة ، وكذلك بعض الملبوسات والأمتعة والأوانى الصينية .

(٤) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية فى طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل پاليولوجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ، غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولاكو قد وصل إليه فى ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم فى التوجه الى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده سنة وثلاثة أشهر ماتت فى أثنائها الحيوانات التى أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٩٨ و ٥١٤

حسنة، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته. وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذى أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته. ولما فرغ من ذلك احتفل بقدومهم وأضافهم عند زوجته (ججك خاتون) وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدّث إليهم فى بعض الشئون، وطلب منهم أن يذكروا له شيئا عن النيل وعن الأمطار فى مصر، كما سألهم عن الفيل والزرافة اللذين كانا ضمن الهدية التى أرسلها بيبرس إليه، ثم عادوا إلى مصر بعد ما أقاموا عنده ستة وعشرين يوما[1]، وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن فى المدارس[2].

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التى تبودلت بينهما. والتى كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان[3]. وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥ هـ.

وفى عهد خلفه منكوتمر[4] استمرت العلاقات الودّية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه؛ فأرسل بيبرس فى سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتابا يغريه فيه بقتال أبغا[5]، وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوّض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولاكو من أراضى المسلمين، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس. وقد حمل هذه

(١) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولدا فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه باطو خان (Enc. Isl. Art. Berke)

(٥) العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٣٧

الرسالة إلى بيبرس عدّة رسل من بيت بركة — وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عكاء . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار الأجانب بالأسكندرية من السفر حتى يعوّضوا ما أخذه أصحابهم من هؤلاء الرسل (١) .

وهكذا ظلت العلاقة ودّية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية فى الوقت الذى كان فيه العداء قائما بينه و بين مغول فارس، حتى أوقع بهم — كما رأينا — وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م، واستحكم العداء بينهم منذذلك الوقت. ولم تكن هناك جريمة أشدّ فى نظر مغول فارس من أن يروا رجلا منهم فى علاقة حسنة مع المماليك، حتى كانت الوسيلة الفذة للايقاع بأى مسلم من رعايا المغول هى اتهامه بالاتصال بالمماليك فى مصر (٢) .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

ابتدأت العلاقات تظهر لأوّل مرة بين بيبرس وأرمينية فى الوقت الذى تقدّم فيه هيثوم (Hethum) (٣) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤م)؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشا مكوّنا من عسكر حماه وحمص (٤) . ولما تقابل الجيشان

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ — ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان لهيثوم ملك أرمينية المسيحى الأثر الأوّل فى العمل على إقناع أمبراطور المغول مانجو خان (٦٤٦ — ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) ، وحمله على إرسال تلك الحملة التى فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ — ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ — ١٢٦٥م) الذى أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطور يين منهم بتأثير زوجته المسيحية ؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحى وتعمدوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات . : Sir Thomas Arnold
The Preaching of Islam, p. 221

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاكو رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب ، وصارت تلك المملكة ولاية تابعة لدولة المغول فى فارس (Enc. Isl. Art. Armenia)

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٩ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٠

وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدّم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى . وقد تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم . غير أن تساقط الثلج وزمهرير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية[1] .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس[2] والإغارة عليها ؛ فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماه واخترقوا مضايق قيليقيا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده « ليفون » ، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا[3] كل ما فيها .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعا فى ولده، فوعده السلطان بتلبية طلبه، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر[4] وأن يرد القلاع التى أخذها من مملكة حلب، وهى بهسنا ودربساك ومرزبان وشبح الحديد[5] . أظهر هيثوم استعداده لتلبية الطلب الأوّل بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردّد فى تسليم القلاع ؛ فكتب إليه السلطان يقول : " إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا منى ..... " . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع فى طلب الصلح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 23.

(٢) وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢

(٤) كان هولاكو قد أسر سنقر هذا أثناء إغارته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ (٥) العينى : عقد الجمان ، المجلد الثالث ورقة ٤٤٥؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

الأشقر وأن يسلم لبيبرس قلعة بهسنا ودربساك وكل ما أخذه من البلاد الاسلامية ، وفى مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلفه على نسخة الصلح التى حلف عليها والده[١] .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فان بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدّة حملات سنة ٦٧٣ هـ على حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفى إحدى غزواته المروعة التى قام بها على الأرمن لنقضهم العهود كانت مدينتا سيس[٢] والمصيصة[٣] مسرحا للسلب والنيران وعاثت جنود الظاهر فسادا فى كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ؛ وكانت غنائمهم عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية[٤] .

فما تقدّم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم لكان خيرا لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين فى ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذى انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم وتشتيت شملهم[٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه المرة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرّضه على الدخول إلى بلاد الروم لما ضاق ذرعا بأجاى (Atchai) بن هولاكو الذى فكر فى قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه وكتب الى السلطان يقول له " أقصد هذه السنة (٦٧٣ هـ) سيس ، وفى السنة القادمة أملكك البلاد " فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب الى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطئ نهر جيحان وهى تقارب طرسوس و بينها و بين أطنة تسعة أميال . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 27. ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

(و) علاقة بيبرس بملوك أوربا :

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة ؛ ففى الوقت الذى كان فيه العداء مستحكما بينه وبين الصليبيين والمغول فى فارس نراه يخطب ودّ امبراطور الدولة البيزنطية[(١)] ويوفق فى ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الامبراطور من سلطان مصر خير معين وعضد له على عدوّهما معا فى البلاد الشامية .

ولما استحكمت بين الدولتين عرا المسالمة طلب الامبراطور من بيبرس بطريقا من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب فى دولته ؛ فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعه الرشيد الكحال وبعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذى جدّد بناءه[(٢)] ؛ ثم عاد هذا الأمير ومعه البطريق محملا بالهدايا . وعند ما علم السلطان بأن الامبراطور جدّد بناء ذلك المسجد شرع فى تأثيثه ؛ فأرسل إليه الحصر والقناديل المذهبة والمباخر والسجادات والطيب[(٣)] .

---

(١) كان امبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفا فى المذهب لكنيسة روما ، كما كان عدوا للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكى وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنطينية وعوامل العداء متأصلة فى نفوس الفريقين . ومن الطبيعى أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية فى نفس الأمبراطور ميخائيل لكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما لهؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العبث وسوء الإدارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدّة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور فقضى عليها سنة ١٢٦٢ م ؛ وبذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Stanley Lane-Poole p. 260 ؛ Camb. Med. Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد هدمه اللاتين أثناء إغارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ؛ العينى : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؛ Stanley Lane-Poole p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ ؛ المقريزى : السلوك ص ٤٧١ — ٤٧٢

وقد أحسن الملك الظاهر صنعا بالتحالف مع هذا الامبراطور ليستعين به هو أيضا على الصليبيين . وليفسح المجال للتجارة المصرية فى بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هـذا إلى وقوفه فى وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليفه سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) عند ما عاق رسله عن مواصلة السـير إلى بركة خان كما تقـدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاكو . وعلى الرغم من ذلك فإننـا نجد الامبراطور فى السنة التاليـة يرسل إليه الهدايا[١] ممـا يدلنا على أنه كان يحرص على محالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والامبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أباقا بن هولاكو من ابنـة امبراطور القسطنطينية[٢] . فكان من أثر هـذه المصاهرة أن تقرّب كل من أباقا والامبراطور من الآخر وفى هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمحالفته امبراطور القسطنطينية، بل تبـادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا[٣] الرسل والهدايا؛ فأرسل فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفدا[٤] مزوّدا بالتحف وعددا من الزراف وجماعة من التتـار الذين أسروا فى موقعة عين جالوت بخيولهم التـترية وعدّتهم[٥] . ولمـا قدم هذا الوفد إلى الامـبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصـة بالزراف والتحف . ولم يلبث بعـد ذلك أن أرسـل إلى السلطان هدية مع أحد رسله[٦] وبذلك توثقت عرا الصداقة بين البلدين وازدادت

(١) المقريزى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole. p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر فى Ens. Isl. Art. Ibn Wāsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين ابن واصل . (٥) Camb. Med. History VI p. 177. (٦) أعاد الامبراطور مع هذا الرسول مملوكين بحريين عندما أساءا الأدب على أثر قدومهما اليه مع هدية السلطان . ولما وصلا إلى مصر أمر بيبرس بتأديبهما فاعتقلا بقلعة الجزيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب .

رسوخا فى عهد شارل صاحب أنجو[1] (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التى تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ، وفضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ فى صقلية . ويتضح لنا ذلك من هذا الكتاب الذى أرسله إليه أحد كبار رجال دولة الملك شارل ، إذ قال له فيه " إن مخدومه (شارل) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا فى بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه"[2] . وربما كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل فى عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية .

ولم تقف مساعى بيبرس عند هذا الحد بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أرجونة (Aragon) وألفنس أمير إشبيلية[3] الذى تبودلت بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا . وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها ودّه فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا مزودين بالهدايا ؛ وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحفاوة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه ، فأكرم وفادتهم وقبل الهدية منهم ثم أعدّ لهم مركبا أبحروا فيه إلى الأسكندرية فوصلوا إليها فى صفر سنة ٦٧٥ هـ[4] .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة :

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدّون إليه الجزية ، غير أنهم كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلما سنحت لهم الفرص ؛ وقد

---

(١) كان شارل هذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التاسع ملك فرنسا . غير أن القائد الجديد حوّل غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ؛ فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب بدفع مبلغ من المال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية تدفع إلى خزانة مملكته . ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٢١ ؛ Barker, The Crusades. pp. 87-89.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٣

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٢٧

حدث ذلك فى أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل اسمه شكندة يؤدّى الجزية ويقدّم فروض الطاعة لمصر، فثار عليه ابن أخيه « داود » ووقع بينهما الشقاق والنزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده (١).

ولما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفع الجزية السنوية لسلطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغيرا على بعض قرى الديار المصرية واستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب (٢).

وعند ما لم يقو شكندة على استرداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجدا بالملك الظاهر. فانتهز بيبرس هذه الفرصة ليثأر من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لاتنقطع عن صعيد مصر (٣)، فجهز مع شكندة قوة من الجند بقيادة شمس الدين أقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر. فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥م)، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهم وبيع السبى بثلاثة دراهم.

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيل إلى البر الغربى. فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى ركبا بمن معهما وتابعوا السير جميعا للقضاء عليه؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمّه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة، فانتهزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة (٤).

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 28.

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥١ و ٥٢

ولما تم لهم ذلك فرضوا عليه أن يقدّم للسلطان فى كل عام عددا من الفيلة والزرافى والفهود والخيول والأبقار وأن يكون نصف محصول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها، ثم عرضوا على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختاروا الجزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عينا. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هذه الشروط وحلفوا شكندة عليها(١) كما حلفوا أيضا رعاياه على طاعة نائب السلطان(٢). فأين هذا مما صنعه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح معهم؟ فإنه عند ما لم يستطع التغلب عليهم والإستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقد معهم صلحا أشبه بمعاهدة تجارية تتعهد فيها مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتتعهد النوبة بتقديم الرقيق.

(١) أورد مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨، نص هذا اليمين وقد جاء فيه "والله والله والله وحق الثالوث المقدّس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجحد المسيح كما يجحد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود ... أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته وانى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يحصل لمن تقدّم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان ... والنصف الآخر مرصدا لعمارة البلاد وحفظها من عدوّ يطرقها وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس وانى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية وانى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئا من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالمصليب واعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود، ثم انى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيرا ولا كبيرا ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية وانى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته وانى لا أنفرد بشىء من الأشياء وانى عبد مولانا السلطان عند نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من والاه وعدوّ من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد".

(٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٢

ولما فرغ الأميران الأفرم والفارقانى من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، فخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بألا يباع من السبى يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها[١] . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ ، فاعتقل بقلعة الجبل[٢] .

وهكذا اتسع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة ، ويقول ميور[٣] فى ذلك : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز :

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان ما بين شرفائهما من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلبى أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه وبين الأمير جماز ، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ هـ واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذا مكوسا من أهالى مكة وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب السكة باسمه[٤] .

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ هـ لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الانشاء فخر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦
(٣) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

وبعض الأجناد . وعند ما وصل إلى المدينة فى أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم سار منها إلى مكة فأدّى بها فرائض الحج . ولما فرغ من ذلك علق كسوة[1] بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغا كبيرا من المال ليوزعوه على أهالى الحرمين ، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأميرى مكة وزاد فى المال المقرر لهذين الأميرين ليسهلا للناس الحج إلى بيت الله الحرام وعين نائبا له بمكة تلبية لطلب أميراها[2] . وبذلك ازداد نفوذ بيبرس فى تلك الأماكن المقدسة .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة وبيبرس :

ارتبطت مصر بعلاقات الودّ مع الحبشة فى عهد بيبرس ، فأرسل ملكها كتابا إلى الملك الظاهر يتودّد فيه اليه و يطلب منه أن يرسل اليه مطرانا[3] . وقد خاطبه فيه بقوله[4] : "أقل المماليك نخر أملاك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه . إن رسولا وصل إلى جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطرك يعمل لنا مطران يكون رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة ويسيره إلى مدينة عوان . فأقل المماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان . وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أننى كنت فى بيكار فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين وإنما (كذا فى الأصل) النصارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ،

---

(١) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز فى كل عام كسوتين : إحداهما للكعبة ، والأخرى لقبر النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) المقريزى : السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٥١

(٣) ذكر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٣ ، أن المطران فى عصره هو القاضى الذى يفصل فى الخصومات بين أهل طائفته .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٩ — ٢٢١

والمطران الكبير يدعو لك ... وكل من يصل إلى المسلمين من بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون . والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض وبلادنا وخمة " .

فكتب إليه بيبرس يقول[1] : " ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكته حطى ملك أمحره أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشى عصره وفريد مملكته فى دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، سلطان الأمحره ؛ حرس الله نفسه وبنى على الخير أسه ، فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف من المسلمين ؛ فالله تعالى يكثر فى عساكر المسلمين . وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى وما يموت أحد إلا بأجله ، ومن فرغ أجله مات " .

فما تقدم نرى كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين والشرقيين المعاصرين له ؛ فكانوا جميعا يخشون بأسه ويعملون كل ما فى وسعهم للتودد إليه والتقرب منه ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة والنبوغ فى فن الحرب .

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٢١ — ٢٢٢